بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

قلنا ، في الجزء الأول من كتابنا ، إن تاريخ نجد الحديث يبدأ بالسنة التي هاجر فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى « الدرعية » .. ففي تلك السنة بدأت (نجد) تكتشف نفسها وتعي حقيقتها وتصنع وحدتها وتبني نهضتها .

أما قبل ذلك ، وحتى القرن الثاني عشر ، فما كانت (نجد) إلا تعبيراً تاريخياً ومصطلحاً « جغرافياً » في الكتب .. وأما في الواقع ، فما كان شيء يذكر بوحدتها أو بوجودها.. وإنما كانت هناك إمارات ومشيخات كثيرة، كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى ، وكانت الحرب ، بين هذه الدويلات العجيبة ، قائمة موصولة ، كأنها جزء من طبيعتها، فكانت البلاد تعيش في رعب دائم : بين عدو يأخذها بالقهر ، أو حليف يأخذها بالغدر .. وما كان أبناء البلدة ليتجرأون على الابتعاد عن أسوار بلدتهم إلا بمغامرة .. لأن الطرق كانت مرصودة بقطاع الطرق وطلاّب الغرّة !..

هكذا كانت نجد : تجديداً وتجسيداً لقصة ملوك الطوائف ، الذين قال فيهم المؤرخ الطبري :

« كل منهم كان ملكه قليلاً ،
انما هي قصور وأبيات ،
وحولها خندق ،
وعدوه قريب منه ،
له من الأرض مثل ذلك ونحوه ،
يغير أحدهم على صاحبه ،
ثم يرجع كالخطفة !. »

كانت الدويلات في نجد صغيرة جـــداً ، ولا نبالغ إذا قلنا إن كل بلدة أو عشيرة كانت دولة .. بل حدثنا ابن بشر أن صاحب بلدة « التويم » قُتِل ، (فقسموا البلد أرباعاً ، كل واحد شاخ في ربع ، فسمّوا « المربوعة » . وإنما ذكرت هذه الحكاية ، ليعرف من وقف عليها وعلى غيرها نعمة الاسلام والجماعة ، فإن هذه القرية ضعيفة الرجال والمال ، وصار فيها أربعة رؤساء !!..) .

وقال صاحب « لمع الشهاب » ، يصف نجداً في تلك الأيام :

(ليس هناك رئيس قاهر يردع الظالم وينصر المظلوم ، بل كل من الحكام حاكم بلده .. والبداة إذ ذاك قبائل شتى .. وحكومة كل شيخ في قبيلته .. وفيهم مشايخ صغار في نفس القبيلة الواحدة يخالفون رأي المشايخ الكبار ، وكان البدو يتحاكمون في قضاياهم الى العرف لا الى الشرع ، وقد يأخذ العرف منهم الرشوة ، وهي ما يعطى لإبطال الحق ..

والحكام طاغون ، يصدّون الناس عن أحكام الشرع ..) .

دويلات صغيرة متعادية ، تعيش في « دوامة » الحروب والطغيان والخوف ، مع غلبة البداوة بأعرافها وضلالاتها ، وفوق ذلك كله : جهل بحقيقة الدين لشيوع

الخرافات وانتشار الشركيات والإعتقاد بالحجار والأشجار ، والنذر للصالحين وللشياطين .. والإستغاثة بالموتى من دون الله سبحانه .. تلك كانت حالة نجـد قبيل دعوة الإمـــام محمد بن عبد الوهاب ، فغير عجيب أن يسمي بعضهم هذه الفترة (**بالجاهلية**) ... تشبيهاً لها بما كان عليه العرب قبل الإسلام !

بعد الدعوة :

كانت نجد ، في تفرق كلمتها وتهافت معتقداتها ، تحتاج إلى زعيم ملهم يعلمها الدين ويحملها على اتباع أوامره ، ويطوي أعلام التفرقة ويجمع الناس تحت راية الأخوة ، فحقـَّـقَ الله ذلك لنجد في العام ١١٥٧ للهجرة .

ففي ذلك العام المبارك جاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية ، لينقلها من الظلام إلى النور ، ومن التفرقة إلى الوحدة ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الجهل إلى العلم، ومن الخرافة الى الدين، فأعزّ الله بحركته لا الإسلام وحده،وإنما أعز العرب أيضاً ، فقد ساهم الشيخ مساهمة عظيمة في تحرير العرب وتوحيدهم وفي إنشاء الدولة العربية الكبرى ، التي بدأت بقرية الدرعيـــة ، ثم انتهت إلى جمع الجزيرة العربية أكثرها ، تحت راية واحدة : راية التوحيد !

ما كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ليستطيع أن يحقق أمله الكبير في تعليم العرب دينهم والنهوض بهم وتوحيدهم ، لولا حماية أمير الدرعية ، محمد بن سعود، لحركته،وجهاده الموصول هو واخوته وأبناؤه وقومه فيسبيلنشر مبادئها،فهناك دعاة للتوحيد جاؤوا قبل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، كابن تيمية وغيره ، لم يستطيعوا تغيير الأمور في شعوبهم لفقدان الناصر القوي الأمين ، لذلك عظمت منة محمد بن سعود على الحركة الاصلاحية وبرزت للمؤرخين المنصفين قيمة مساهمته الجليلة في خدمة الإسلام والعرب !

والحق يقال : لولا دعوة محمد بن عبد الوهاب لم تصبح الدرعية قاعدة للدولة السعودية الكبرى !

.. ولولا سيف محمد بن سعود ، لخنق الأعداء دعوة محمـد بن عبد الوهاب في مهدها !

قال أرمسترونغ :

« كان ابن سعود زعيماً قائداً ،

وكان ابن عبد الوهاب هادياً وداعياً إلى الله ،

وبفضل تعاونهما : حُطمت الأوثان ، ونفذت أوامر القرآن ، وأكره الناس على الصلوات الخمس في المساجد ،وعلى صوم رمضان، ومنع شرب الخمرة والدخان وخضعت القبائل والبلدان واحدة بعد أُخرى لدولة التوحيد » .

الدرعية قبل الشيخ :

كانت الدرعية ، قبل وصول الشيخ اليها ، بلدة صغيرة ، ويقال إن عدد بيوتها ما كان يتجاوز السبعين ، وكان صاحبها محمد بن سعود يديرها بأسلوب « عشائري » ،وكان يأخذ من أهلها « القانون » وهو نوع من الضرائب التعسفية.

كان أهل الدرعية حنابلة ، ولكن اسماً لا حقيقة ، وكان لهم « مطوّع » ، ولكنه لا يدعو إلى الدين الصحيح ، وإنما يكتب للناس الحجب والطلاسم .. ويتقبل منهم النذور لغير الله .. وكان النـاس يعتقدون بالأشجار والأحجار ، ويدعون أوليـاءهم لجلب الخير ودفع الضرر .. شأنهم في ذلك شأن غيرهم من أهل نجد !

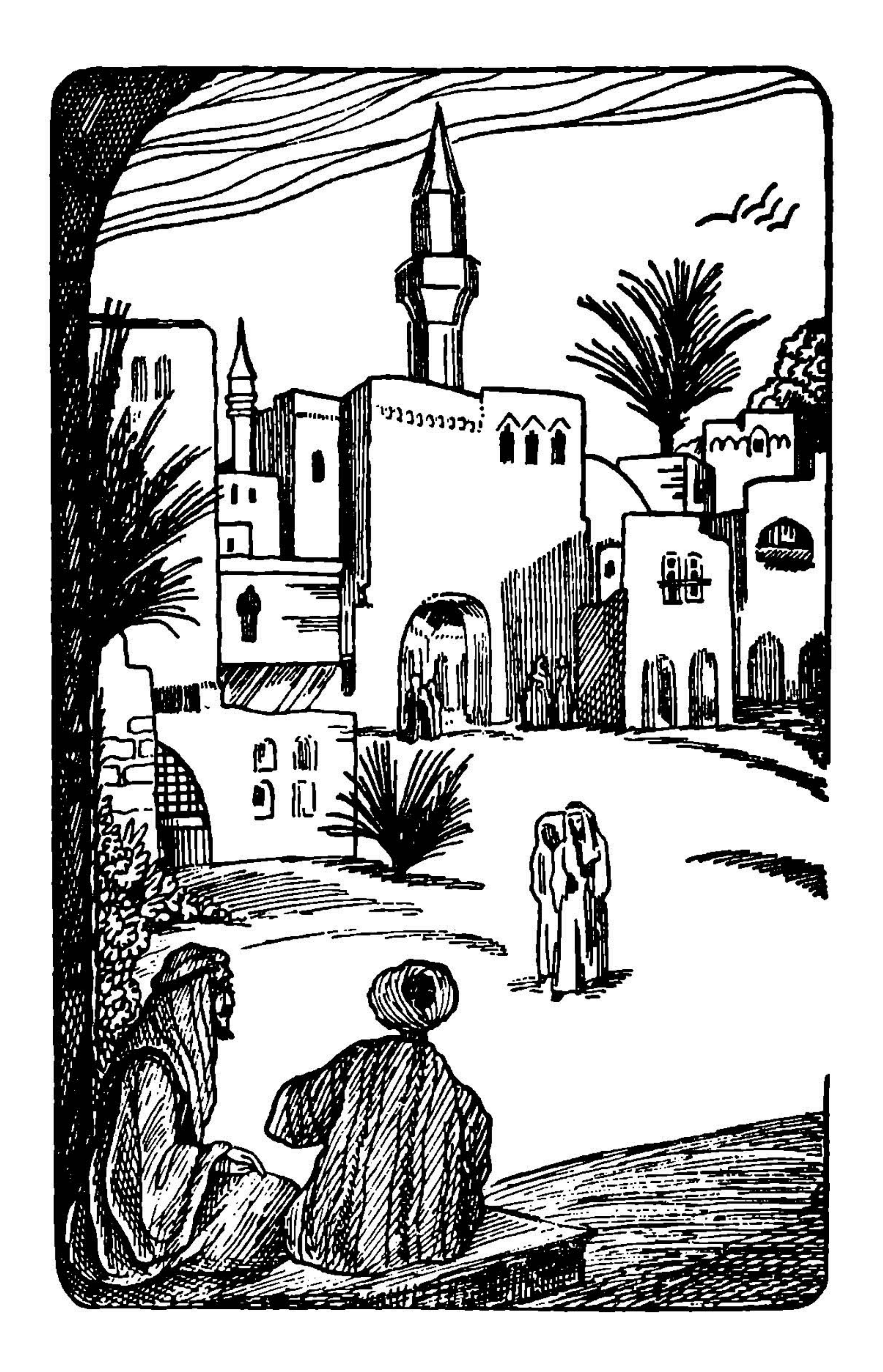
الدرعية بعد الدعوة :

فلما جاء الشيخ إلى الدرعية ، رحّب به أميرها محمد بن سعود ، وقال له :

« أبشر ببلاد خير من بلادك ، وابشر بالعز والنعمة » [١] .

---

(١) انظر ابن بشر .



صورة لمدخل بلدة « الدرعية »
كما تخيَّله أنكيري في كتابه « ابراهيم باشا »

فقال له الشيخ :

« وأنا أبشرك بالعز والتمكين . وهذه كلمة (لا إله إلا الله) من تمسّك بها وعمل بها ونصرها ، ملك البلاد والعباد » [1] .

ثم شرح له معنى التوحيد ، وذكر له شيوع الشركيات والخرافات في نجد ، وانتشار المفاسد والمظالم ، وضرورة مكافحة ذلك . فقال له الأمير ، في رواية ابن بشر :

« أبشر بالنصرة لما أمرت به ، والجهاد لمن خالف التوحيد » [2] !

ويقول صاحب « اللمع » ان الأمير محمد قال للشيخ :

(هذه القرية قريتك ، والمكان أنت واليه ، فلا تخشَ أعداءك ! والله لو انطبقت علينا جميع نجد ما أخرجناك عنا) !

وهكذا كان هذا اللقاء – ثم «العهد» – بين الرجلين نعمة من نعم الله الكبرى ، فقد استطاع الشيخ أن يعلم أهل الدرعية كلهم ، خلال سنة واحدة ، معاني التوحيد ، وأن يجعلهم أنصاراً له ودعاة لفكرته في سائر بلدان نجد !

تغيرت الدرعية ، بعد هجرة الشيخ ، تغيراً كاملاً ، وقد نستطيع تلخيص مظاهر هذا التغيير بما يأتي :

أولاً – أبطل الاسلوب « العشائري » الذي كان يحكم به الناس ، وحلّ محله حكم نظامي ، دستوره الإسلام .

ثانياً – أبطلت « الإخاوة » أو « القانون » ، وأصبحت موارد الدولة هي الموارد الشرعية وحدها ، من الزكاة والغنائم ونحو ذلك .

---

(١) و (٢) انظر ابن بشر .

ثالثاً – لم تعد القوة هي الحكم في الخلافات التي تقوم بين النـاس ، فقد أُقيم قضاة لفصل الخصومات بالحق ، فتنعم الجمهور بنعمة العدل .

رابعاً – نشطت حركة التعليم نشاطاً عظيماً ، بل أصبحت الدرعية «مدينة جامعية » يتوافد اليها طلاب العلم من كل بقاع نجد وجزيرة العرب .

خامساً – حلّ الجهاد لإعلاء كلمة الدين محل الغارات العشائرية القديمة التي كان يقصد منها بجرد السلب والنهب والعدوان .

سادساً – حمل الناس حملاً على تنفيذ أوامر الدين والانتهاء عن نواهيه ، وفي مقدمة ذلك إكراههم على الصلوات الخمس في المساجد .

سابعاً – أصبحت الدرعية مركزاً للدعوة ، ينطلق منه الدعـــاة وترسل الكتب إلى كل البلدان ، وتأتي اليه الوفود والضيوف جماعات وفرادى ، وقـد جاء إلى الدرعية عدد كبير من الموحدين ،ضاقت بهم بلدانهم واضطهدتهم ،فأصبحوا بذلك من جنود الدعوة وتقوّى بهم الأمير محمـــد بن سعود وحارب بهم أعداء الدعوة وتغلب عليهم !

تغير الصورة :

رأينا صورة نجد قبل اتفاق الشيخ والأمير ، وفيها : التفرقة ، والضعف ، والجهل ، والرعب ..

فلما اتفق الرجلان العظيمان على التعاون واشتركا في الدعوة إلى الله تعالى، وفي حكم الدرعية وما ينضم اليها من البلدان ، أخذت الصورة تتغير ..

ويمكننا القول ان محمـد بن سعود شهد ، قبل وفاته عام ١١٧٩ ، نشوء دولة إسلامية عربية حرة ناهضة ، قاعدتها بلدة « الدرعية » .

كانت هذه الدولة في ازدياد ، وكان خصومها في تناقص ..

..وفي عهد محمد بن سعود تمّ توحيد أكثر بلاد العارض، وشقت الدعوة طريقها إلى « الوشم » وإلى سدير وشعيب والمحمل ، وترنحت « الرياض » تحت ضربات الموحدين ..

وكان عبد العزيز بن محمد ، في حيـاة أبيه ، من أكبر أنصار الشيخ ومن أبرز قادة الجيوش وأبطال المعارك .

وإذا كان محمد بن سعود أسس ، مع الشيخ ، الدولة السعودية الأولى ، وهو شرف له عظيم ، فإن ابنه عبد العزيز أضاف الى تركة والده أضعاف أضعافها .. واستحق هو أيضاً من التقدير والثناء ما استحقه أبوه ، وربمـا أكثر ، فقد نذر حياته منذ طفولته حتى موته للجهاد في سبيل الله ثم في خدمة شعبه .

سياسة عبد العزيز الخارجية :

لم يترك عبدالعزيز بعده ذلك «الدوي» الذي خلفه ابنه سعود، الملقب بالكبير ، ولكن « الدوي » ليس مقياس العظمة دائماً ..

تحدّى سعود الدولة العثمانية تحدياً صارخاً وحاربها ، وانتصر عليها ، خلال فترة من الزمن ، فكان ذلك وحده كافياً لترديد اسمه في أكثر بلاد الدنيا ..

وأما عبد العزيز فقد حارب ولكنه لم يثر عليه الدولة العثمانية لأنه لم يسرف في معاداتها .

وقـد حاول أكبر خصوم عبد العزيز — وهو شريف مكة — أن يثير عليه السلطان العثماني ، فعجز عن ذلك ، لأن عبد العزيز كان حكيماً في سياسته الخارجية ، ولم يكن ابنه سعود معتدلاً مثله فنجحت دسائس الشريف ضده .

وثيقتان خطيرتان :

ظفرنا بوثائق خطيرة تتصل بعهدي سعود الكبير وابنه عبد الله ، وأما عهد عبدالعزيز فما وجدنا عنه في دور « المحفوظات » التركية والافرنسية والانكليزية

إلا شيئاً قليلاً ، ولعل أهم ما وجـــدناه في دار المحفوظات باستانبول : «عريضتان» رفعهما المفاتي والقضاة وبعض الأعيان في مكة والمدينة إلى السلطان العثماني يستنجدان به للدفاع عن هاتين المدينتين ضد .. الدرعية !.. وكان ذلك في عهد عبد العزيز .

كتبت هاتان « العريضتان » – الرسالتان – في عـام ١٢٠٧ للهجرة ، وفيهما كثير من السباب والطعن بالحركة السلفية الإصلاحية وصاحبها العظيم ، ولكن الأمر العجيب – والسارّ أيضاً – أن الموقعين على هاتين الرسالتين قـد أسرعوا ، بعد دخول الامـــام سعود مكة – إلى الاعتراف بأن كل ما جاء به الامام محمد بن عبد الوهاب كان مستمداً من القرآن الكريم والسنة النبوية وما كان عليه الخلفاء الراشدون ..

وهكذا أظهرت الأيام أن شريف مكة هو الذي أكره الناس على الكتابة إلى السلطان، فلما زال حكم الشريف انطلقت ألسنتهم بقول الحق الذي يعتقدونه في قرارة أنفسهم ، وربما فعلت قلة منهم ذلك نفاقاً ، والله وحده يعلم السرائر !

هاتان الوثيقتان لم تنشرا من قبل في أي كتاب أو مجلة ، وربما كانتا تبقيان مطويتين زمناً طويلاً لولا نشرنا لهما،وقد صورناهما – أنظر صورهما فيالصفحات « س » إلى « خ » – ثم أوردنا أكثر نصوصها في الصفحات « ذ » إلى « د.د » ، باستثناء فقرات نابية وسباب بذيئة ، وهاتان الوثيقتان تبرز لنا الأمور الآتية :

أولاً– شدة مخاوف شريف مكة منقوة الدولة السعودية،وهي المخاوف التي جاءت على ألسنة المفاتي والقضاة والخطباء والمدرسين والأعيان فيمكةوالمدينة..

ثانياً – شدة « تبعية » القضاة والمفاتي وغيرهم من الموظفين للسلطة العثمانيـة ومبالغتهم في التملق والهوان.. وتمدحهم للسلطان العثماني بما لا يليق بعربي ومسلم أن يفعله .. فضلاً عن الكذب الظاهر في قولهم إن وارث الخلفاء الراشدين ومن أبنائهم !..

ثالثاً – استعمال ألفاظ تدل حقاً على « الشرك » الذي أرادوا تنزيه أنفسهم عنه ..

رابعاً – السخف في إيرادهم المآخذ على الموحدين في نجد، تلك المآخذ التي جعلوها وسيلتهم الى مطالبة السلطان العثماني بمحاربتهم .. ومن جملتها : ان الموحدين من أهل نجد لا يكرمون كتاب « دلائل الخيرات » !! – فتأمل ! –

خامساً – يعترف الموقعون بسرعة انتشار الدعوة بين عرب الحجاز وبلوغها الى عرب الشام والعراق ..

وهناك أمر آخر يستحق التنويه به والتنبيه اليه وهو : **أن الوثيقة الاولى تحدّد ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد : بسنة ١١٤٣ هـ .** وهو ما أغفل تحديده مؤرخا نجد ابن غنام وابن بشر .

رجال العهد :

لم يكن عبد العزيز وحده صانع كل الأمجاد التي تحققت في عهده ، فقد شاركه في تخطيط سياسته وتحقيق « مشاريعه » رجال عظماء ، لا بد لنا من الإشارة الى طائفة منهم .

ألمع الأسماء في عهد عبد العزيز :

١ – **الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب:** الذي كان يوجه سياسة البلاد حتى فتح الرياض ، ثم ترك أمور السياسة لعبد العزيز وانصرف إلى العلم ، وإن كان عبد العزيز لم يستغنِ قط عن مشورته .

وقد توفي الامام سنة ١٢٠٦ للهجرة ، وعاش عبد العزيز بعده اثني عشر عاماً كان خلالها أبناء الشيخ ، وفي مقدمتهم الشيخ حسين ، ينهضون بما كان ينهض به والدهم العظيم ، وإن كانت زعامتهم الدينية ، طبعاً ، أضعف قليلاً من زعامته .

٢ – عبد الله بن محمد : أخو عبد العزيز :

كان الأمير عبد الله بن محمد بن سعود بطلاً ، شارك في كثير من الحروب والغزوات ، وأبلى فيها بلاءً حسناً ، وكان عبد العزيز يحب أخاه عبد الله حباً كثيراً ، وقد كشف لنا الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف في بعض رسائله عن « حادثة » جليلة، لم يشر اليها المؤرخون، وهي أن **عبد العزيز أراد ، بعد فتح الرياض،أن يسمي أخاه عبد الله أميراً عليها،فمنعه الامام محمد بن عبد الوهاب من ذلك ، مع محبته هو أيضاً لعبد الله.** وذلك حرصاً على وحدة الدولة الناشئة وقوتها ، فلو أن البلدان النجدية توزعت بين عدد من أمراء آل مقرن واستقل كل واحد منه بمملكته الصغيرة لما قامت الدولة السعودية الكبرى [١] ..

وعبد الله بن محمد بن سعود ، رحمه الله ، هو أبو الإمام تركي وجد الإمام فيصل، أي أنه الجد الأعلى للملك عبد العزيز، مؤسس المملكة العربية السعودية.

٣ – سعود بن عبد العزيز :

قاد أكثر الحروب والغزوات في عهد أبيه ، وكانت له مشاركة كبيرة في أمور السياسة والإدارة أيضاً .

٤ – آل الشيخ :

كان الشيخ حسين وإخوانه أبناء الشيخ أعظم الوزراء – أو المستشارين – عند عبد العزيز ، وكان على رأيهم المعوّل في الامور الدينية ، وكانت كتبهم ورسائلهم في الامور الشرعية مرجعاً للقضاة ولسائر الناس ، ولكن عبد العزيز

---

(١) أنظر رسالة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف إلى ابراهيم بن عبد الله وإخوانه المنشورة في الجزء السابع – كتاب الجهاد – من مجموعة (الدرر السنية في الأجوبة النجدية) صفحة ٢٧١ وهذه قطعة منها : (وكذلك ما قاله إمام هذه الدعوة النجدية الشيخ محمد رحمه الله تعالى لما أراد عبد العزيز أن يجعل أخاه عبد الله أميراً في الرياض بعد فتحها ، أنكر ذلك وأعظمه ، وقال هذا قدح وغيبة لإمام المسلمين وعضده ونصيره ، لأنه رأى ذلك وسيلة إلى الفرقة،مع أن عبدالله ما يظن به إلا خيراً ، وحسبك به رحمه الله) .

مع تقديره لها ولعلم أصحابها لم يلزم الناس بها إلزاماً مطلقاً، فقد جاء في بعض رسائل عبد العزيز ما يسمح بمخالفة رسائلهم وآرائهم عند وجود الدليل المخالف، قال :

« هـــذا كتاب آل الشيخ ، تشرفون على ما فيه من الأدلة التي لا تنكر في مسألة العلامة التي تجعل في العبي وغيرها من الحرير ، فيكون عندكم معلوماً إن إخوانكم من أهل الدرعية عملوا على ما في الورقة، فأنتم اعملوا على مثل ما عملوا، **ومن وجد دليلاً يخالف مـــا فيها فالحق مقبول متبوع ، والرجوع الى الحق خير من التمادي في الباطل .** »

اسلوب الدعوة والدعاة :

وجدنا في كتاب أرسله الشيخ عبد الرحمن بن حسن إلى الإمام فيصل بن تركي فقرة أحببنا إثباتها هنـــا لما تضمنته من الإشارات اللطيفة إلى الاسلوب الذي استنّه الشيخ محمد بن عبد الوهاب، واتبعه من جاء بعده، في الدعوة إلى التوحيد ونشر الدين والعلم بين الناس وإعزاز كلمة رجال الدين وتقديمهم ، قال :

(.. دائماً في كل وقت ، يبعثون الدعاة إلى الله إلى كل بلدة ، يجدّدون لهم دينهم ويسألونهم عن ثلاثة الأصول والقواعد وغير ذلك من كتب الأصول .

أعرف منهم نحو العشرة ، منهم : عبـــد الله بن فاضل ، وعبد الرحمن بن ذهلان ، وراشد بن درعان ، وعثمان بن عبد الله بن عبيكان ، وحمـد بن قاسم ، وأحمد الوهيبي، وسليمان بن ماجد، ومحمد بن سلطان وأولاده، وحسن بن عيدان، ومحمد بن سويلم ، وعبد العزيز بن سويلم ، وعثمان العود ، وعبد الرحمن بن نامي ، وعبد الرحمن بن خريف ، وأمثال هؤلاء من لهم فقه في التوحيد ورغبة فيه .

وكل واحد من هؤلاء يروح لجهة ، ومعه اثنـان أو ثلاثة ، ويجلس في البلد قدر شهرين ، يسألهم ويعلّمهم ، والذي ما يعرف دينه يؤدّب الأدب البليـغ ما يعارض ، فإذا أراد السفر استلحق أهل الدين من أهل البلد ، وقال : سلموا على الكبار ، ويعرف الشيخ وعبـد العزيز وإخوانهم بأحوالهم ويقدمونهم في بلدهم

بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبهذا صار للدين سلطان وعز ، وهـــذا يفعلونه دائماً مع الرعايا ، وصار الذي له دين يقوم بالدين ويأمر وينهى ، والذي ما له دين يتزبّن عند أهل الدين .

وأما حالهم في بلد الدرعية ،فبنوا مجمعاً حول مسجد البجيري ـ محله معروف إلى اليوم ـ يسع له قدر مـائتي رجل ، **وجعلوا فيه رفاً للنساء** ، فإذا صلّوا الصبح أقبلوا لهذا المجمع، وفيه معاميل وقهوة وما نابها مقيوم به من بيت المال، تارة يجلس فيه (حسين) ابن الشيخ ، وتارة (عبد الله) وتارة (علي) ، ويقرأون في نسخ التوحيد ، فإذا فرغ هذا الدرس راحوا ، هم وغيرهم ، وجلسوا عنـــد بيت الشيخ ، حتى يجيء عمك وجدك وسعود وعياله، وآل عبد الله ، ويدخلون عند الشيخ رحمهم الله ، فإذا « تقهووا » وذكر عمك، رحمه الله ، للشيخ ما عنده من خبر أو أمر يحتاج له الشيخ ذكره له وأخذ ما عنـــده من رأي ومن علم ، وأرخصوا للجماعة .. وقرأ ثلاثة : (عبد العزيز) بن الشيخ يقرأ في تفسير ابن كثير ، و (علي) و (عبد الله) يقرأون في البخاري ، وكل من عنـــده دراية وفهم إذا فاضوا في الباطن صاروا حلقاً يتذاكرون درس الشيخ رحمه الله .

والأجنبي الذي يبغي يركب لديرته يصغي للمذاكرة ، عارف أن أهل ديرته يسألون : أيش أيش درس الشيخ فيه ؟

وقـد ذكرت لك قصة ابراهيم بن زيد في تلك المدة ، وموسى بن حجيلان يمشي على المساجد يسألهم : عن ثلاثة الأصول والقواعد .

ونحن ، يا حمولة ، لنا مجلس بين العشاءين في الباطن ، (يجتمعون) فيه أهل البلاد ، ونسأل اثنين ، والذي ما يعرف دينه يضرب ..

فأول يجلس فيه حسين ، ثم علي بن الشيخ . وجلست فيه مدة نحو سنتين أو ثلاث على هذا الترتيب ، ثم حمد بن حسين .

هذا بعض ما حضرناه من سيرتهم ، فلما توفى الله عمك حصل غفلة عن هـذا الترتيب ، لما فتح الله الدنيا وكثرها على النـــاس ووقع الاعراض عن كثير مما ذكرنا ، لا كله بل باقٍ له بقايا ، وحدث ما حدث من البلاوى بالعدو) [1] .

عظمة عبد العزيز :

وبعد .. لا بدّ لنا ، قبل اختتام هـذه المقدمة ، من كلمات نصف بها ، في كثير من الإيجاز ، بعض مظاهر العظمة الحقيقية – لا التعاظم – في شخصية الإمام عبد العزيز بن محمد ، مبتدئين أولاً بذكر الأسباب التي تحملنا على تسمية عبد العزيز **المؤسس الثـاني للدولة السعودية الاولى** ؛ ثم نصف **عبد العزيز – الانسان** ، ثم نورد **ما قال فيه أول غربي زار الدرعية في عهـــده** ، ثم نعرض **للمفاضلة بينه وبين ابنه سعود ...**

---

(١) يجب أن نضيف إلى أسماء الدعاة والعلماء البارزين في عهد عبدالعزيز اسم الشيخ عبدالعزيز ابن عبد الله الحصين الناصري والشيخ حمد بن ناصر بن معمر ، وهناك آخرون وردت أسماؤهم في مواضع متفرقة من هذا الكتاب وربما أفردنا لذكر علماء الحنابلة في ذلك العصر كتاباً خاصاً .

— ١ —

المؤسس الثاني للدولة السعودية الاولى

ورث عبد العزيز عن أبيه مُلكاً صغيراً قاصراً على عـدد قليل من القرى ، أكثرها في العارض ، ولكن الله سبحانه بارك هـذا الملك الصغير ونصر راياته ، فلم تمضِ سنوات معدودات حتى ضمّ عبد العزيز الى سلطانه بلاد نجد والأحساء وجبل شمر وتهامة وسراة عسير ومرتفعات الحجاز ، وبسط حمايته على القواسم وعمـان وزبارة والبحرين ، كما تفتحت له أبواب الحرمين وجُبيت له الزكاة من بوادي العراق والشام .

وهكذا تضاعف ملكه ألف مرة ، حجماً وقوة وثراء .. وكبرت قرية الدرعية، قاعدة إمارته ، حتى أصبحت أعظم مدينة في جزيرة العرب .. ولعل أول ما يتذكره أحدنا ، وهو يقارن بين ضعف الدرعية قبل الدعوة وبين قوتها بعد الدعوة ، تلك الكلمات الملهمة التي قالها الشيخ محمد بن عبد الوهاب لمحمد بن سعود في أول لقاء كان بينهما ، فقد وعده ، متى أخلص التوحيد والتزم بأحكام الشرع ، أن يملك هو وأبنـــاؤه جزيرة العرب ، وشاء الله سبحانه أن يتحقق بعض هذا الوعد في عهد محمد ، ثم يتكامل في ولاية عبد العزيز !

كان أمر عبد العزيز ، منذ تولى الحكم ، في ازدياد ، حتى امتدّ ملكه من الخليج العربي إلى البحر الأحمر ، واجتمعت له إلى سعة الرقعة : كثرة العدد وقوة الجيوش وتوافر الأموال والأرزاق ، مع شيوع الأمن وعظم الهيبة !

من هنا.. قال بعض المؤرخين : **ان عبد العزيز هو مؤسس الدولة السعودية الاولى ، لأن الفتوحات العظيمة تمّت في زمانه، فأصبحت بلاده « دولة » بعد أن كانت « مشيخة »** أو إمارة صغيرة مغمورة !

ولكننا لا نشارك القائلين بهذا الرأي رأيهم ، وإنما نقول بما قالته الكثرة من المؤلفين والمؤرخين وهو : أن **محمد بن سعود مضى بشرف تأسيس الدولة السعودية الاولى** ، وأن ابنه عبد العزيز إنما أكمل عمله وحقق أمله ، ولكل منهما نصيبه من الفخر وبقاء الذكر .

فإذا قيل لنا : إن معنى الدولة مرتبط بشيء من معاني السعة في الأرض والكثرة في السكان – ولم يكن ذلك متوافراً للدرعية في زمان محمد بن سعود – أجبنا أن كل دولة تكون في أول أمرها صغيرة ثم تكبر ، وما كان التأسيس على كل حال ليعني استكمال البناء .. وإنما هو وضع الأساس ، ومحمد بن سعود هو واضع الأساس .

فإن كان مُلك محمد بن سعود صغيراً في حجمه ، فقد كان كبيراً بزخمه ، موعوداً بالنصر !

وبعد .. **إن من حق عبد العزيز علينا أن ندعوه : المؤسس الثاني للدولة السعودية الاولى** ، لأنه شارك في بنائها وتركيز دعائمها ، فقد آزر أباه في كهولته، وناب عنه في شيخوخته، ولما توفي أبوه واستقل بالسلطان ، حمل الراية بقوة وإيمان ، وأخضع البلدان بالحرب والسياسة، وأقام على الشرع قواعد الحكم

والرئاسة ، وأضاف إلى تركة أبيه المباركة شيئاً كثيراً ، فخرجت البــلاد في عهده من نأنأة الدولة الصغيرة إلى بحبوحة الدولة الكبيرة .

• • •

إن العمل الذي قام به محمد بن سعود وابنه عبد العزيز ، بعد مبايعتهما للشيخ ، كان عملاً جليلاً من الناحيتين الدينية والوطنية ، لأنه أحلّ الدينَ محلّ الخرافة والجهل ، والوطنَ محل الإقليمية والقبلية . ولكن أبعاد هذا العمل العظيم تبدو لنا بوضوح وقوة متى وضعناه في « إطاره » العالمي ، فقد حقق محمد وعبدالعزيز ، من وراء توحيد الشطر الأكبر من جزيرة العرب تحت لواء واحـــد ، حدثاً عظيماً لفت إليه أنظار العالم : **وهو ظهور دولة عربية حرة قوية ، بعد فترة طويلة من غياب العرب عن مسرح السياسة الدولية .**

ذلك أن سلاطين آل عثمان كانوا استولوا على بلاد العرب وانتزعوا الخلافة منهم ، ودُعي لهم وُخطب بأسمائهم على المنابر العربية ، فبدا للعــالم أن السلاطين العثمانيين هم سادة البلاد العربية وأولياء أمرها ، وأن شخصية العرب قد ضاعت وصفحتهم انطوت ، وأنهم مرحلة تاريخية مضت ولن تعود !..

فلما أشرقت شمس الدولة العربية ، الصاعدة من أُفق نجد ، متحدية سلاطين العثمانيين ومنكرة عليهم سلوكهم وحتى إمامتهم للمسلمين ، اعتــبر ذلك الحدث العظيم إيذاناً بنهضة عربية تصل مــا انقطع من التاريخ العربي ، بل اعتبر **فاتحة عصر جديد** ، لا في تاريخ نجد وحدها ، ولا في تاريخ الجزيرة العربية وحدها ، وإنما اعتبر ، لخطورة آثاره القريبة والبعيدة ، **بدء عهد جديد في تاريخ العرب والاسلام .**

— ٢ —

عبد العزيز ... الانسان

لم يكن عبد العزيز عظيماً بشجاعته وفتوحاته فحسب ، وإنما كان عظيماً ، قبل كل شيء، بهذا الجانب من شخصيته : **خلقه الكريم** ، يبدو لنا من خلال محبته للعلماء ورعايته لطلبة العلم ، وعطفه على الفقراء، ومناصرته للضعفاء، وكراهيته للظالمين ، ووقوفه عند الحدود ، وتورعه عن المحارم ، وتواضعه ، وبساطته ، وزهده !

ذكر ابن غنام في مواضع متفرقة من تاريخه أنه كان « **من حسن سيرة عبد العزيز وفطنته** ، وبديع هديه وسنته ، **أنه كان يدعو الى الله تعالى بالتي هي أحسن** » ، وأن جماعة من رجاله أسروا محمد بن ديماس وأتوا به اليه في الدرعية ليقتله ، فلم يفعل ، مع ما صدر من قبيح فعله ، **فقد كان وقافاً عند الحدود يدرؤها بالشبه!** وغزا ركب لأهل بريدة (ظهرة مع «النفيشي» وأخذوا أموالهم ، فلما تبين لعبد العزيز أن فيها أموالاً لأهل المدينة ، أمر بأدائها الى أصحابها تامة من غير نقص ، لأنها كانت أوقافاً وأحباساً ، فلم يرد أخذها) **!**.

وما أعظم موقف عبدالعزيز الحاكم – الانسان، حين حملوا اليه عشرين كيساً كبيراً من الدنانير وطرحوها أمامه على الأرض ، فنخسها بسيفه ، وقال هذه الكلمة الرائعة :

« اللهم سلطني عليها ،
ولا تسلطها عليّ ! »

ثم أمر بتفريقها في حوائج الناس !..

كان عبد العزيز ، مع إهماله حظ نفسه من الدنيا ، كبير الحرص على سعادة شعبه ، يتعهدهم بالسهر الدائم ، ويكافح عنهم ، ما استطاع ، الجوع والمرض والخوف والجهل والفساد .

قال ابن بشر ، يصف عبد العزيز :

(كان لا يكترث في لباسه ولا سلاحه ، بحيث أن بنيه وبني بنيه محلاة سيوفهم بالذهب والفضة ، ولم يكن في سيفه شيء من ذلك إلا قليل .

وكان كثير الرأفة والرحمة بالرعية ، وخصوصاً أهل البلدان ، بإعطائهم الأموال وبثّ الصدقة لفقرائهم والدعاء لهم والتفحص عن أحوالهم .

وكان كثير العطاء والصدقات للرعية من الوفود والأمراء والقضاة وأهل العلم وطلبته ومعلمة القرآن والمؤذنين وأئمة المساجد .

وكان الصبيان من أهل الدرعية ، إذا خرجوا من عند المعلم ، يصعدون اليه بألواحهم ، ويعرضون عليه خطوطهم ، فمن تحاسن خطه منهم أعطاه عطاء جزيلاً ، وأعطى الباقين دونه .

وكان اذا مات الرجل من جميع نواحي نجد يأتي أولاده الى عبد العزيز يستخلفونه ، فيعطيهم عطاء جزيلاً وربما كتب لهم في الديوان.. وكان يسأل عن الضعفاء والأيتام في الدرعية وغيرها ويأمر بإعطائهم .

وكان كثيراً ما يكتب الى النواحي بالحض على تعليم القراءة وتعلم العلم وتعليمه ، ويجعل لهم راتباً في الديوان ، ومن كان منهم ضعيفاً يأمره أن يأتي الى الدرعية ويقوم بجميع أنوابه) .

وذكر ابن غنام أن عبد العزيز أعطى، غير مرة ، نصيبه ونصيب رجاله من الغنائم الى المهاجرين واللاجئين الى الدرعية ، وأنه كان يأمر كل بلد ، حين يشتد الغلاء ، أن يحصوا من عندهم (من المساكين والضعاف ويقيتوهم من الطعام ما به قوام وكفاف) ، وكان هو ، من ناحيته ، يقوم في ذلك أعظم قيام ، فيفيض (من الإنعام على اولئك الأنام ، خصوصاً أهل الحاجة والأرامل والأيتام) حتى يكشف الله الغمة !

لم نأت بهذه الأمثلة والشواهد لمجرد التدليل على أن عبد العزيز كان أميراً — انساناً ، وإنما أردنا أن نخلص من وراء ذلك أيضاً الى القول بأن الحاكم المسلم ، المتأدب بأدب النبوة والخلافة الراشدة ، يرتفع بمستوى الحكم في بلاده الى أسمى درجات العدالة الإجتماعية ، تلك التي يطالب بها بعض الناس في هـــذه الأيام ، متوهمين أن الدول الحديثة « التقدمية » هي وحدها دول « عدالة اجتماعية » ، لأنها تكافح العوز والجهل والمرض والخوف !

والحق إن تاريخنا يمشي أمامنا ، لا خلفنا ، فأجدادنا سبقونا الى تحقيق المثل العليا التي ما تزال تحلم بها اليوم شعوب كثيرة وتتقلب اليها بأشواقها !

— ٣ —

وثيقة تاريخية نادرة

« رينو » : أول غربي زار الدرعية ووصفها وتحدث عن أميرها عبد العزيز بن محمد

لم يُعن الغربيون بتاريخ نجـــد إلا بعد حملة محمد علي التي انتهت بتهديم « الدرعية » ، ولفتت أنظار العالم مرة أُخرى إلى تلك البـلدة المجاهدة الشهيدة التي طلعت منها شمس النهضة العربية الحديثة .

كانت الكتب والمقالات التي تنشر في الغرب عن نجد وبلاد العرب قليـلة ومشحونة بالكذب والافتراء ، وإذا خلت أحياناً من سوء النية لم تخل قط من الجهل والخطأ . حتى قام مؤرخون ورحالة منصفون ، أمثال بركهارت ومانجان وسيتزن ، بنشر بحوث عن نجد وجزيرة العرب تتسم « بالموضوعية » ، ويجتهد أصحابها في استقصاء الحقائق من مظانها ، غير متأثرين بما يقوله الترك أو يشيعه أعداء العرب؛ وبفضل هؤلاء الرحالة المنصفين عرف المثقفون في أوروبا من أمور الجزيرة العربية وتاريخها وجغرافيتها وسياستها واقتصادها أكثر مما يعرف المثقفون العرب الذين كانوا يعيشون في ظل الحكم التركي !

يقال ، في الأمثال : « أهل مكة أدرى بشعابها » ! ولسنا ننكر أن ما ما كتبه ابن غنام وابن بشر ، النجديان ، عن تاريخ نجد ، شيء عظيم يعجز عنه المؤرخون الغربيون ، حين يحاولون الكتابة عن نجد .. ولكن المؤرخ الغربي العالم المنصف قد يفطن أحياناً لأمور غابت عن فكر مؤرخي نجد .. وقد يكشف لنا عن آفاق مجهولة ..

نضرب مثلاً لذلك ما نسميه : « الصلات الدولية » ، فإن مؤرخي نجد لا يشيرون قط إلى أي اتصال بين حكام الدرعية وبين رجال الغرب .. والفضل للرحالة الغربيين في الكشف عن هذه الصلات !

لقد ذكر لنا المستشرقون أن سعود الكبير استقبل في الدرعية سياسياً أوروبياً أوفده إليه نابوليون بونابرت ، إمبراطور فرنسا ، للتعاون معه على حرب الانكليز في الهند !

وكان يظن أن سعود الكبير كان أول حاكم سعودي يستقبل أوربياً ، ولكن المستشرق « سيتزن » Seetzen نشر عام ١٨٠٥ م . بحثاً في مجلة Montaliche correspondentz — المراسلة الشهرية — التي كان يصدرها البارون فون زاك Von Sack باللغة الالمانية ، أثبت فيه أن الأمير عبد العزيز بن محمد سبق ابنه سعود إلى الاجتماع بسياسي غربي في الدرعية ، وهذا السياسي الغربي هو الضابط البحري البريطاني : « رينو » .

ويقول « رينتس » في دائرة المعارف الإسلامية : إن رينو هولاندي الأصل يتكلم اللغة العربية ، وقد أرسله « صموئيل مانيستي » مندوب الشركة البريطانية للهند الشرقية في البصرة ، إلى الدرعية ، لمفاوضة عبد العزيز ...

لا نعرف تفاصيل رحلة رينو إلى الدرعية ، ولعل رينو أودع جانباً منها في تقاريره إلى حكومة الهند أو وزارة المستعمرات.. ولكننا ما كنا لنعرف شيئاً

عن هـــذه الرحلة لولا « الصدفة » التي جمعت بين رينو وبين سيتزن في مدينة حلب ، فقــد قصّ رينو على سيتزن شيئاً من أخبار « مغامرته » .. فنشرها سيتزن في مجلة « المراسلة الشهرية » .

كان ذلك منذ مائة وسبعين سنة تقريباً .. ثم شاء القدر أن تقع أعداد من تلك المجلة العتيقة في يد أحد المستشرقين ، فيشير إلى اجتماع رينو بعبد العزيز إشارة خاطفة في دائرة المعارف الإسلامية ، ولما وقفنا نحن على ذلك بحثنا ، في بعض أسفارنا إلى البلدان الغربية ، عن أعداد المجلة المذكورة فوجدناها بعد عناء وصورنا مقال سيتزن ، ولعل كتابنا أول كتاب عربي تظهر فيـــه صورة « زنكوغرافية » كاملة لحديث رينو ، كما ورد في مقال سيتزن .

وفي اعتقادنا أن قيمة هذا الحديث التاريخية كبيرة جداً ، لأنه حمل إلى الغربيين الذين كانوا يجهلون كل شيء عن نجد ، نبأ عظيماً : هو أن في نجد أميراً متواضعاً ، يعيش عيشة بساطة وتقشف ، ولكنه يملك جيشاً من مائتي ألف مقاتل ، ويسيطر على بلاد واسعة تمتد من الخليج إلى البحر الأحمر ومن عمان إلى الشام، ولو قيس به كثير من ملوك الغرب لكان مثلهم كمثل الأقزام أمام العملاق!

حديث رينو عن الدرعية وأميرها :

وهذه ترجمة حديث رينو عن الدرعية وأميرها ، كما سجله سيتزن في رسالته الى المجلة ، سنة ١٨٠٥ م .

قال رينو :

(الدرعية مدينة صغيرة ، ولكنها جميلة رائعة ، مبنية على الطراز العربي ، والسكنى فيها صحية جداً .

وتحيط بالمدينة تلال خضر زمردية من كثرة الزرع .

Sand, der Vater des jetzigen. *Sand al Whahabee* war der erste, der die neue Religion stiftete, und *Abdil Aziz* schmückte sie nur noch mehr aus. *Abdil Aziz* war ungefähr 60 Jahr alt; ein schlanker hagerer Mann, und für einen wilden Araber sehr gebildet. Seine Familie belief sich nach den mir darüber mitgetheilten Nachrichten auf 80 Seelen. Er hatte keinen Hofstaat, und doch gingen alle Geschäfte durch seine Hände. Ein einziger Schreiber, Namens *Mula*, *) war sein Gehülfe. Seine Truppen bestanden damals aus 100,000 Mann, allein da jetzt die *Hofiry*, *Aneve*, *Ibn Kalid*, und noch andere Arabische Stämme unter seiner Botmäſsigkeit sind, so glaube ich mich nicht zu irren, wenn ich die Zahl seiner Truppen oder vielmehr seiner Unterthanen, die auf jeden Befehl die Waffen ergreifen müssen, auf 200,000 bestimme.

In *Drahia* gibt es weder Juden noch irgend eine andere Nation als *Whahabee*. Ich hielt mich ungefähr eine Woche zu *Drahia* auf, und kehrte dann nach einem seht kurzen Aufenthalt zu *Katif*, nach *Graïn* zurück.

---

*) *Mula* oder *Molla* ist der gewöhnliche Arabische Name aller studirenden Personen.

XXIII.

بقية حديث رينو المنشور في الصفحة المقابلة

men, da eine Menge Einwohner, zu der Zeit, als ich mich daselbst befand, die Stadt aus Furcht vor den *Whahabee* verlassen hatten, die es auch späterhin eroberten. Früher stand *Ascha* unter der Botmässigkeit der *Ibn-Kalid*. Die Stadt selbst ist nicht beträchtlicher denn *Katif*, und ihre ganzen Manufactur-Arbeiten bestehen ebenfalls nur in einer gröbern Art von Camloten. Oft leidet *Ascha* an trinkbarem Wasser Mangel, da kein Fluss in der Nähe ist, und die Einwohner dieses Bedürfniss blos aus einigen Brünnen, die ein sehr sumpfiges Wasser geben, erholen müssen.

Von *Ascha* bis *Drahia* sind noch acht Tagereisen. Der ganze Weg ist eine sandige Einöde, die nur zuweilen mit Gebüsch bewachsen ist. *Drahia* ist eine kleine aber im Arabischen Style schön gebaute Stadt, deren Lage den Aufenthalt daselbst sehr gesund macht. Um die Stadt herum liegen einige gut angebaute Hügel, und die ganze Gegend wird durch einen kleinen Fluss bewässert. Man findet hier einige Früchte, als Weintrauben, Feigen u. s. w., die aber, wie man mir sagte, von den Einwohnern sämmtlich schon unreif verzehrt werden. Die in diesen Gegenden hausenden *Whahabee* sind sehr wilde, aber auch auf der andern Seite sehr gastfreundliche Menschen. Man findet hier eine ungeheuere Menge Schafe, die grösstentheils schwarz sind, eine sehr lange Wolle und lange Ohren haben, und ein vortreffliches Fleisch liefern. Die dasigen Pferde sind ziemlich wohlfeil und die schönsten in Arabien.

In der Zeit als ich mich zu *Drahia* aufhielt, war der Name des dasigen Scheiks *Abdil Aziz Ibn Saud*

صورة زنكوغرافية لحديث (رينو) منقولة عن
مجلة فون زاك الصادرة عام ١٨٠٥ م

وتروى المنطقة كلها من عين صغيرة .

ويجـــد الانسان في الدرعية أنواعاً مختلفة من الفاكهة ، أكثرها الأعناب والتمر ، وربما أكلوا شيئاً منها قبل نضجها .

والوهابيون الذين يقطنون هـذا الاقليم قوم كرماء مضيافون ، وإن كان في طباعهم شيء من الجفاء .

والغنم هنا كثير ، وهو أسود الشعر ، طويله ، وآذانه كبيرة ، ولحمه أجود أصناف اللحم .

والخيل كذلك كثيرة ، وأسعارها ليست غالية ، وعندهم من الجياد الأصيلة العربية أحسن سلالاتها .

لا يوجد في الدرعية يهود ، بل.. لا يوجد فيها إلا مسلمون وهابيون [١] .

قضيت في الدرعة اسبوعاً ..

وكان أميرها يومئذ : الشيخ عبـد العزيز بن محمد بن سعود ، وكان في نحو الستين من العمر ، رشيق القوام ، نحيلاً ، وعلى حظ كبير من الثقافة والعلم .

وقيل لي إن عدد أفراد أسرته ثمانون .

لم يكن عنده « قصر » بمعنى القصور الملكية المترفة في الغرب ، ولا ديوان، وكان يقوم بأعماله بنفسه ، يساعده كاتب واحد .

---

(١) من الغريب أن هوغارت D. G. Hogarth يقول في كتابه المشهور (The penetration of Arabia) : أن سيتزن نقل عام ١٨٠٥ رسالة من رينو الذي زار الدرعية يقول فيها إنه وجد هناك « بعض اليهود » .

وهذا خطأ فاحش تورط فيه هوغارث ، فرينو نفى وجود يهود في الدرعيه .. وأكثر من ذلك .. قال انه لا يوجد فيها إلا وهابيون !.

أما عدد جنوده فمائة الف ، ولكنه يستطيع ، متى أراد ، أن يسوق الى ساحة القتال ضعفي هذا العدد) .

مؤرخون رووا عن العارفين :

لم يقدّر لغربي آخر – غير رينو – أن يجتمع بعبد العزيز ، ولذلك لا نملك شهادات أو « مشاهدات » غربية اخرى عن مؤسس الدولة السعودية الثاني .. وربما عوّضنا عن هذا النقص أن بعض المؤرخين الغربيين اتصلوا برجال من نجد عاشوا مع عبدالعزيز وعرفوا أخلاقه وأسلوبه في الحكم ، وسألوهم عنه فرووا لهم طائفة من أخباره . وقد اقتبسنا في كتابنا ما استجدناه من ذلك ، وحسبنا في هذه المقدمة ، أن نذكر شيئاً مما كتبه بركارت وكورانسيز عن عبد العزيز ، لنعطي القارىء فكرة عن اسلوب الغربيين في الكتابة عن هذا الزعيم ، فإنهم لا يكتفون بسرد وقائعه وخلع الألقاب عليه ، وإنما يجتهدون في تبيان التغييرات التي أحدثها في حياة قومه .

قال بركارت :

كانت نجد موزعة بين عدد كبير من الأقاليم والمدن والقرى ، وكانت هذه المناطق مستقلة ، متعادية ، يحارب بعضها بعضاً .

وكانت شريعة الأقوى هي الشريعة المتبعة في الأرياف وضمن أسوار المدن ، حيث يضطر الرجل الضعيف إلى التخلي عن ملكه وحقه للرجل القوي المتغلب.

وكانت الفوضى مسيطرة على مضارب البدو ، وكانت معاركهم التي لا تنتهي وغزواتهم التي لا يقصد منها إلا السلب والنهب ، تغرق بلاد نجد في طوفان من الدم .

هذا هو الوضع الذي واجهه عبد العزيز .

وقد استطاع عبد العزيز، بعد كفاح طويل وشاق، أن ينشر الدعوة في نجد وأن يتسلم السلطة العليا ويمارسها على نحو ما كان يمارسها خلفاء محمد ﷺ، وبذلك تحول من شيخ عشيرة إلى رئيس دولة!

لم يحاول عبد العزيز إخضاع مواطنيه في كل أمورهم إلى سلطته وسلبهم كل حرية، كما يفعل الحكام المستبدون، فقد ترك العرب ينعمون بحريتهم في عشائرهم وبلدانهم، ولكنه حملهم على العيش بسلام، وعلى احترام حق الملك، والخضوع لأوامر الشرع ونواهيه، وبهذه الوسيلة تيسر له الاستيلاء على الشطر الأكبر من جزيرة العرب، لأن أسلوب حكمه كان أسلوباً حراً سمحاً، مبنياً على أساس **« جمهورية بدوية » كان، هو، رئيساً لرؤسائها، أي شيخاً لجميع شيوخ العشائر فيها، يدير سياستهم العليا، في الحرب والسلم**، ويلزمهم باتباع أحكام الشرع وينزل العقوبة بمن يُخل بها، ولكنه يدع للشيوخ حرية التصرف في كل ما عدا ذلك من أمورهم!

كان العربي لا يعرف قاعدة لسلوكه إلا شهوته ورغبته، أما الآن... فينبغي له أن يخضع لأحكام الشرع ويدفع الزكاة إلى الإمام ويشترك في الجهاد (أو الغزو) ضد الملاحدة والمشركين، كلما دعي إلى ذلك.

ولم يعد العربي قادراً على الإحتكام إلى السيف لحل خلافاته مع الآخرين، فقد أُقيم قضاة لفصل الخصومات، ويجب عليه أن يعرض أمره عليهم ويُسَلِّم بقضائهم).

وقال كورانسيز:

(كان عبد العزيز يعيش عيشة تقشف، مثل أكثر رعاياه، ولعل ذلك من أعظم أسباب توفيقه. كان نزيهاً، **فلم يتخذ الدعوة وسيلة لجمع المال، ولكنه جمع المال ليخدم الدعوة!**

كان شجاعاً، ولكن في غير تهور.

كان رحيماً، ولكنه كان يعاقب على الاخلال بالأمن والفوضى عقوبة شديدة).

— ٤ —

المفاضلة بين عبد العزيز وسعود

لقبوا سعود بن عبد العزيز بسعود الكبير ، وفاضت له في البـــلاد العربية والأجنبية شهرة واسعة لم يظفر بمثلهـا أبوه ، ونحن لا ننكر على سعود بلاغته وعلمه وشجاعته وفضائله الكثيرة ، ولكننا نفضل عليه أباه عبد العزيز ، فقد كان عبد العزيز أحكم منه وأحلم ، وأبعـــد عن شهوات الملك ، ولم تكن فيه «حدة المزاج» التي ظهرت آثارها في بعض أعمال سعود، وربما كانت من أسباب ضياع الدولة السعودية الاولى ، بعد أن بلغت الذروة في القوة والسعة !

كان عبد العزيز شجاعاً حازماً ، ولكنه لم يكن متهوراً ولا مغامراً ، وكان يميل الى السلم والموادعة ما وجد اليهما سبيلاً ، ولذلك قال مندوبا الإمام عبد الله ابن سعود لمحمد علي ، حين اجتمعا به في مصر : إن عبد الله لا يشبه أباه سعود (لأن في سعود شيئاً من العناد وحدّة المزاج) ولكنه يشبه جده عبد العزيز في لين عريكته ، كما يشبهه في مسالمته للدولة ، فقـد كان عبد العزيز — كما قالا — (مسالماً للدولة ، حتى أن يوسف باشا حين كان بالمدينة ، كان بينه وبينه غـاية الصداقة ، ولم يقع بينهما منازعة ولا مخالفة في شيء ، ولم يحصل التفاقم والخلاف إلا في أيام سعود) .

هذا من ناحية الحدّة والاستفزاز ...

وأما من ناحية الخلافة والملك ، فقد أوضح الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن

الشيخ محمـــد بن عبد الوهاب الفرق بين عبد العزيز وبين ابنه سعود ، في رسالة بعث بها الى الإمام عبد الله بن فيصل ، قال فيها :

(تفَهَّمْ أن أول مـا قام به جدك محمد ، وجدك عبد الله بن محمد ، وعمك عبد العزيز : **أنها خلافة نبوة** ، يطلبون الحق ويعملون به ويقومون ويغضبون له ويرضون ويجاهدون ، وكفاهم الله أعداءهم على قوتهم ، إذا مشى العدو كسره الله قبل أن يصل ، لأنها خلافة نبوّة !

وما قاموا على الناس إلا بالقرآن والعمل به ، كما قال تعـالى : ﴿ وعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ .

وأخذ عمك « عبد العزيز بن محمد » في الاسلام حتى جاوز الثمانين من العمر ، والاسلام في عز وظهور ، وأهله يزيدون ، وحصل لهم مضمون قوله : ﴿ ليستخلفنهم في الأرض ﴾ ، وصار أهل الأمصار يخافونهم .

وأراد الله **إمارة سعود بعـد أبيه** ، يرحم الله الجميع ، **وأراد الله أن يغيّر طريقة والده الذي قبله ، وبغاها ملكاً** ، وبدأ ينقص أمر الدين والدنيا تطغى) .

• • •

وبعد .. إن عبد العزيز ، الذي قال فيه الجنرال فيغان إنه **(كان يجمع ، في أحسن مزاج ، الشجاعة والحكمة ، وهمـا صفتان عظيمتان لا بد لكل فاتح كبير من التحلي بهما)** كان حقاً فاتحاً عظيماً ، **ولكنه كان كذلك قـائداً حليماً وملكاً رحيماً وإنساناً كريماً ، وسيرته من أنبـــل السير وأجدرها بأن يتدارسها الناس .**

ولاية عبد العزيز

كان عبد العزيز من أصحاب السابقة في نصرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولعله كان أصغر أنصاره سناً ، فقد كان الشيخ مقيماً في العيينة ، والدعوة في نأنأتها ، حين أرسل اليه عبد العزيز – ولعله كان يومئذ فتى دون العشرين – يطلب منه تفسيراً لسورة الفاتحة ... فكتب الشيخ، لأجله، ذلك التفسير الرائع الذي أثبته ابن غنام في تاريخه !

ولما هاجر الشيخ الى الدرعية ، لازمه عبد العزيز ، وواظب على حضور دروسه ، وكان معتزاً بزعامته ، واعياً لدعوته ، حريصاً على مرضاته ، سريعاً في تحقيق رغباته ، فأحبه الشيخ حباً كبيراً ، وكان يثني عليه في مجالسه العامة والخاصة ثناءً كثيراً .

وفي عام ١١٧٩ هـ . توفي محمد بن سعود ، أمير الدرعية ومؤسس الدولة السعودية الاولى، وكان ابنه البكر عبد العزيز في السادسة والأربعين من العمر ، ولم يكن غريباً عن السياسة ، لأن أباه كان يشركه في إدارة البلاد ، وربما أطلق يده فيها ، تخفيفاً عن نفسه لكبر سنه، وتمهيداً لخلافته ؛ وقد أصاب عبدالعزيز من وراء ذلك شهرة واسعة ، لما كان الناس يرون من شجاعته وسياسته وحلمه وكرمه ، وصلاحه وتقواه ، وصدقه في الجهاد لإعلاء كلمة لا إله إلا الله .

وبالجملة، لم يكن في آل مقرن، عند وفاة محمد بن سعود، من يسامي عبدالعزيز في قوة الشخصية وعلو الصيت والحظوة عند الشيخ ، فكان اختياره للإمارة ، بعد أبيه ، أمراً مسلماً به ، لا ينازعه فيه أحد !

هل بويع لعبد العزيز بولاية العهد ؟

أسلوب ولاية العهد في الإسلام معروف ، وهو أن يختار الإمام القائم ولياً لعهده ، ويظهره ، ويأخذ له البيعة من الناس خلفاً له بعد وفاته .

فهل اختار محمد بن سعود ولده عبد العزيز ولياً لعهده وطلب له البيعة من الجمهور ؟

أكبر الظن أن هذه البيعة لم تقع في حياة محمد بن سعود ، ونحن لا نجد في ابن غنام أية إشارة اليها ، وأما ابن بشر فيذكر في أخبار سنة ١١٧٩ هـ . ما يأتي :

(.. وفيها توفي محمد بن سعود .. وكان ولي العهد بعده ابنه عبد العزيز فكان إمام المسلمين ..) .

ويقول « بلغرف Palgrave » : إن محمد بن سعود أوصى ، قبيل موته ، أن يكون عبد العزيز خلفاً له، فتسميته ولياً للعهد جاءت من هناك، وإن لم تؤخذ له البيعة في حياة أبيه !

وهذه الرواية التي نقلها بلغرف عن النجديين ، خلال زيارته للدرعية والرياض ، قد تكون تفسيراً حسناً مرضياً لقول ابن بشر .

ولعل من الخير أن نورد في هذا المعرض رأياً للمستشرق بركارت فقد نفى ، بأسلوب الحكيم ، ولاية العهد عن عبد العزيز ، قال : لم يفكر الشيخ ، أول الأمر ، في تسليم زمام الزعامة والحكم إلى بيت مخصوص ، ولكنه رغب في ذلك بعد اتساع رقعة البلاد وتكاثر المنضوين تحت راية الدعوة ، فأمر الناس ، عام ١١٨٢ هـ . أن يبايعوا سعود بن عبد العزيز بولاية العهد ، نظراً منه إلى صالح المسلمين وخوفاً عليهم من التفرقة .

هل كان عبد العزيز اماما ؟

شيء آخر في كلام ابن بشر يبدو قابلاً للجدل، هو قوله أن عبد العزيز أصبح عند وفاة أبيه إماماً للمسلمين .

ذلك أن خصائص الإمامة – ونعني بها الإمامة الخاصة لا الإمامة الكبرى أو الخلافة – كانت موزعة بين عبد العزيز والشيخ محمد بن عبد الوهاب بل كانت زعامة الشيخ أجلى وأظهر ، حتى قال الرحالة نيبوهر في كتابه « صفة جزيرة العرب » : إن رئيس البلاد النجدية هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهو الذي يجبي الزكاة .

ولا نبعد .. فابن بشر نفسه يقول إن الأمر كان بيد الشيخ حتى فتح الرياض (فلما فتح الله الرياض واتسعت ناحية الإسلام وأمنت السبل وانقاد كل صعب من باد وحاضر ، جعل الشيخ الأمر بيد عبد العزيز ، وفوّض أمر المسلمين وبيت المال إليه ، وانسلخ منها، ولزم العبادة وتعليم العلم ، ولكن ما يقطع عبد العزيز أمراً دونه ولا ينفذه إلا بإذنه) .

قد يقال إن الأصل في رؤساء هذه الدعوة السلفية أن يكونوا أئمة لا ملوكاً، وإن ألقاب الأمارة والملك والسلطنة دخيلة عليهم ، وكل هذا حق ، ولكنه إنما تقرر أو توكد بعد وفاة الشيخ .

ويبدو أن فريقاً من أعداء الدعوة لم يرضهم أن يتسمى رؤساؤها باسم الامامة ، لأنها في قريش ، ويجب أن يسلم بها المسلمون في كل أقطارهم ، وقد ردّ عليهم الشيخ رداً مفحماً ، وكذلك فعل الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين بعده ، فبيّنا أن الامامة جائزة في قطر مخصوص، وأن السلاطين الترك هم الذين أزالوا الخلافة عن قريش وانتحلوها لأنفسهم ، والعرب أولى بها من الترك .

ومهما يكن الأمر فإن آل سعود لم يقولوا إنهم يتولون الامامة على كل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، فتسميتهم بالامامة – كما يقول عبد الله أبا بطين – هو كتسمي « كل من صار والياً في صنعاء .. إماماً » .

ويذهب العالم المذكور إلى القول بأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ما ادعى إمامة الأمة ، وإنما هو عالم دعا إلى الهدى وقاتل عليه ولم يلقب في حياته بالامام ولا عبد العزيز .. ما كان أحد في حياته منهما يدعى إماماً ، وإنما حدث تسمية

من تولى « إماماً » ، بعد موتها) [1] .

ويبدو لنــا أن كلام الشيخ عبد الله يحتمل « المناقشة » .. فابن غنام ألف كتابه قبل وفاة عبد العزيز ، ومع ذلك لقبه بالامام ، سواء عند مبايعته عام ١١٧٩ هـ . أم خلال حياته وولايته ، فقال ، مثلاً ، في أخبار سنة ١٢٠٤ :

(وفي اثناء تلك الليالي والأيام، أمر عبد العزيز الامام، أهل الايمان والاسلام أن يجردوا مواضي العزيمة) الخ ..

فهل كان يعني بكلمة الامامة مجرد الزعامة [2] ؟

الحق..إن قصة اللقب تتضاءل وتزول أمام الأعمال العظيمة التي أنجزها عبد العزيز .. فيها ، لا باللقب ، كتب له بقاء الذكر وجلس في مكان الصدارة بين الرجال الذين صنعوا التاريخ العربي ، بل النهضة العربية ، بعد رقاد طويل !

---

(١) أنظر كتاب « الدرر السنية ، في الأجوبة النجدية » جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ، الجزء السابع ، صفحة ٢٤١ .

(٢) وهذا نص كلام الشيخ عبد الله أبا بطين،كما ورد في مجموعة (الدرر السنية في الأجوبة النجدية) :

(وسئل الشيخ عبد الله أبا بطين : إذا قال بعض الجهال إن من شروط الإمام أن يكون قرشياً – ولم يقل عارضياً – يشير الى أنه قد ادعاها من ليس من أهلها،يعني محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى ، ومن قام معه وبعده ، بما دعا إليه ..

فأجاب :

إذا قال بعض الجهال ذلك ، فقل له : ولم يقل .. تركياً ..

فإذا زال هـــذا الأمر عن قريش ، فلو رجع إلى الاختيار لكان العرب أولى به من الترك ، لأنهم أفضل من الترك ..

وهذا الذي يعظمه الناس تركي ، لا قرشي ، وهم أخذوها بغياً على قريش ..

ومحمد بن عبد الوهاب ، رحمه الله ما ادعى إمامة الأمة ، وإنما هو عالم دعا إلى الهدى وقاتل عليه ، ولم يلقب في حياته بالإمام .

ولا عبد العزيز بن محمد بن سعود ، ما كان أحد منهم في حياته يسمى إماماً ..

وإنما حدث تسمية من تولى إماماً ، بعد موتها ..

وأيضاً فالألقاب أمرها سهل ، وكذا .. كل من صار والياً في صنعاء يسمى إماماً ، وصاحب مسقط يلقب كذلك .